إمامان إن قاما وإن قعدا

من التساؤلات التي تطرأ على اذهان اكثرنا حين يطّلع على سيرة الإمامين الحسنين عليهما السلام ويقف على اهم حدثين سياسيين في حياتيهما (الصلح الحسني، والنهضة الحسينية) هو لماذا نجد هذا الاختلاف الكبير بين هاتين الحركتين؟ مع انهما عليهما السلام المقترنين معا في ولادتهما ومنشئهما وتربيتهما وحياتهما وفضلهما؟

وياتي الجواب في نقاط

١- لم يكن معاوية كيزيد:

فمعاوية خال المؤمنين -بزعمهم-، وكان ظاهره الصلاح والتزام نهج الخلفاء الثلاثة الى حد ما، وكان قد ولاه عمر من قبل على الشام واعطاه صلاحيات خاصة يمتاز بها عن سائر الولاة، واقره عثمان على ولايته وزاد صلاحياته، واستقل بعد ذلك بالحكم بذريعة الطلب بثأر عثمان.

اما يزيد فقد كان معروفا بالفساد وكان يصرح كثيرا بالكفر امام العامة ولم يكن له ما لأبيه من التقديس والتبجيل حتى بأعين اهل الشام الذين ربّاهم معاوية على دينه، لذلك امتنع عن طاعته وبيعته الكثير من المسلمين، ولذلك كان عموم المسلمين يرون احتمال انتصار الامام

الحسين عليه السلام على يزيد قويا على الخلاف من احتمال انتصار الامام الحسن عليه السلام على معاوية، اذ ان اغلب الامة ضد يزيد واقلها ضد معاوية، فلم تكن الامة لتعذر من يبايع للتقية اذ لا يرى خطرا كبيرا يُتّقى منه.

٢- الحفاظ على الجماعة الصالحة:

إذ أن كسب جماعة مؤمنة بدين الله والحفاظ عليها ورعاية شؤونها من أولى اولويات الانبياء والاوصياء عليهم السلام، فالامام الحسن عليه السلام كان مخيرا بين البقاء في الحرب وخسارته الجماعة الصالحة التي قضى رسول الله صلى الله عليه وآله وامير المؤمنين عليه السلام عمريهما في بنائهم، وبين تسليم الحكم الى معاوية بشرط الابقاء على هذه الجماعة والحفاظ عليها من بطشه واعطائها شيئا من الراحة المالية والاجتماعية، فاختار عليه السلام الخيار الثاني، وذلك ما صرح به عليه السلام في مواقف عديدة منها ما قاله لمالك بن ضمرة: «إني لما رأيت الناس تركوا ذلك إلا أهله خشيت أن تجتثوا عن وجه الأرض، فأردت أن يكون في الأرض ناعي»

فمعاوية الداهية لم يكن يمني نفسه بكسب ولاء اصحاب علي عليه السلام، بل يكتفي بأغماد سيوفهم عنه ليتسنى له ان يبني جماعته التي تؤمن به ثم يبثهم شيئا فشيئا بين اولئك.

على الخلاف من يزيد الاحمق الذي لم يرد من

احد ان يتولاه بل يريد من الجميع ان يطيعوه ولا يفكروا بعصيانه خوفا منه لا طاعة له.

٣- الأمة هي التي اختارت الصلح والانقلاب:

حيث ان الامام الحسن عليه السلام خطب في عسكره «إنا والله ما ثنانا عن أهل الشام شك ولا ندم، وإنا كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر، فسلبت السلامة بالعداوة، والصبر بالجزع، وكنتم في منتدبكم إلى صفين ودينُكم أمام دنياكم، فأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم، ألا وإنا لكم كما كنا، ولستم لنا كما كنتم. ألا وقد أصبحتم بين قتيلين: قتيل بصفين تبكون له، وقتيل بالنهروان تطلبون ثاره، فأما الباقي فخاذل وأما الباكي فثائر. ألا وإن معاوية دعانا إلى أمر ليس فيه عز ولا نصفة، فإن أردتم الموت رددناه عليه، وحاكمناه إلى الله عز وجل بظبا السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه، وأخذنا لكم الرضا» فناداه القوم من كل جانب: البقية البقية. فلما أفردوه أمضى الصلح.

نعم اعترض بعض الشخصيات من اصحاب امير المؤمنين عليه السلام على الصلح ولم يقبلوا به وعاب بعضهم على الامام الحسن عليه السلام قبوله اياه ونعتوه بالجبن والذلة -معاذ الله- وارادوا الاستمرار بالقتال كحجر بن عدي وعمرو بن الحمق الخزاعي وقيس بن سعد بن عبادة وغيرهم،

ولكنهم كانوا نماذج قليلة لا يمثل رأيها راي عموم المسلمين ولم يكونوا يعون ما يعيه عليه السلام.

في حين ان الامام الحسين عليه السلام قدمت اليه من الكوفة وحدها ما يربو على الاثني عشر الف كتاب تخبره بانهم ليس في عنقهم بيعة ليزيد وتدعوه للحضور عندهم لينصروه ويعيدوا اليه حقه في الحكم، عدا ما وصل اليه من الأخبار الكثيرة من الأمصار المختلفة عن الامتناع عن بيعة يزيد، فلم يكن له عليه السلام أن يدير وجهه عن كل هذه الدعوات محتجا بالخوف من يزيد وجنده ومعظم الأمة معه ضد يزيد، وحتى لو كان يعلم بانهم سينقضون عهودهم ويخالفون اقوالهم الاولى ويبايعون يزيد خوفا وطمعا، فانه لن يعطيهم بسكوته عنهم ذريعة إلى ذلك.

٤- تجربة حكم معاوية بصّرت الأمة خطأها:

فالأمة الإسلامية لم تكن تعرف ما معاوية وكيف سيحكمها أول الأمر فاجبروا الإمام الحسن عليه السلام على تسليمه أمرهم، ولكنهم حين رأوا الويلات تلو الويلات تترى عليهم في سني حكمه العشرين وكيف أنه استولى على خيراتهم واقتسمها مع اصحابه ومقربيه، وبطش فيهم بطش جبّار، ولم يراع فيهم ذمة ولا دينا، علموا علم اليقين أن يزيدا سيفعل بهم فوق ذلك اضعافا مضاعفة فضجّوا الى الحسين عليه السلام

ليخلصهم منه وكأنهم تابوا مما اقترفوه بحق اخيه الحسن عليه السلام، ويا لها من توبة لم تدم.

٥- عدم وجود الأنصار:

فالامام الحسن عليه السلام لم يتوفر له الانصار كما توفروا للامام الحسين عليه السلام، اذ ان الكثير من انصار الامام الحسن عليه السلام المقرّبين كانوا لم يصلوا بعد لمرحلة التسليم المطلق لأوامره ونواهيه، فنرى بعضهم ينعته بـ"مُذلّ المؤمنين" أو "مسخّم وجوه المؤمنين" او يعصي امره بالانسحاب ويأمر جيشه بقتال جيش معاوية لولا ان يخذله جيشه... الى غير ذلك من المواقف التي تدل على انه عليه السلام لم يكن لديه انصار كأنصار الحسين عليه السلام الذين خاطبهم ليلة عاشوراء: «أما بعد فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا أخير من أصحابي»

وقد صرح الامام الحسن عليه السلام بذلك في احاديث كثيرة رويت عنه منها قوله: «والله ما سلمت الأمر إليه إلا أني لم أجد أنصاراً، ولو وجدت أنصاراً لقاتلته ليلي ونهاري حتى يحكم الله بيني وبينه»

مؤسسة دار الحكمة للثقافة والعلوم الإسلامية
www.darhikma.net

مركز مَدرك للتنمية والدراسات الإسلامية
٣٥

إمامان
إن قاما وإن قعدا

إعداد
مركز مَدرك للتنمية والدراسات الإسلامية